

بدايةً، أقدم اعتذاري لكل إنسان أو مسؤول أو أي جهة فهمت كلامي بطريقة أشعرتهم بأنني أبالغ أو أتحدث بطريقة غير مناسبة، فأنا لا أقصد الإساءة لأحد؛ بل وضعت في هذه الصفحات إيجازاً لرأي تكوّن لديّ منذ أن بدأت العمل في قطاع التربية والتعليم عام ١٩٩٦ ولغاية الآن، حيث تشرفت بأن كنت معلماً ومنسقاً أكاديمياً، في العديد من الأنظمة التعليمية الدولية والوطنية، ومديراً عاماً ومالكاً لمدارس، ومؤسساً للعديد من المدارس، في أكثر من دولة، ومديراً وخبيراً ومستشاراً للعشرات من المشاريع التطويرية في مجال التربية والتعليم، مع منظمات دولية وجهات مانحة عالمية مختلفة، ومقيماً ومطوّراً للعديد من المدارس في الوطن العربي، بمختلف أصنافها وأنواعها وأشكالها، وأشرفت على مجموعة من الدراسات، التي من شأنها أن توضح الحقائق المتعلقة بهذا المجال.

ورأيت أنّ لزاماً عليّ، بعد أكثر من سبعة وعشرين عاماً من العمل في هذا الميدان المشرف، أن أسطر هذه الصفحات، لأتكلم فيها عن الواقع التعليمي والتربوي في مدارسنا في الوطن العربي خاصة، وفي مدارس العالم عامة، وأخرج بتصور عملي لبعض المقترحات التطويرية، التي تحيي المدرسة من جديد وتنتهي موتها؛ المتمثل بعدم كفاءتها في تقديم أفضل نوعيات التربية والتعلم لأبنائنا وبناتنا الذين، يعتبرون أهم عامل في الاستمرار النوعي في بناء أوطاننا.

وبلا شك، فإن هناك نقاط قوة حقيقية في التعليم العربي بشكل عام، وفي التعليم الأردني بشكل خاص، والتي سأحدث عنها في الصفحات القادمة، حيث تعتبر هذه النقاط أحد أهم ركائز فكرة الكتاب لعودة المدرسة إلى القوة والتفوق الذي نريد.

وأعلم تمام العلم بأن كلامي يحتمل الصواب، كما أنه يحتمل الخطأ، وأنه قابل للنقد والتصحيح، وأحترم كل رأي يصلني سواء من أبنائي وبناتي الطلبة، أو من الكوادر المدرسية، أو من أولياء الأمور، أو من المسؤولين، حول آرائي في هذا الكتاب، سواء بالمعارضة، أو الموافقة، أو التعديل والتصحيح.

ويشرفني أن يكون بريدي الإلكتروني بين أيديكم:

yazanabdo@gmail.com

لنكن واضحين منذ البداية؛ ونصرّح بالأسئلة التي تخطر ببالنا جميعاً؛ سواء أ كنا كوادِر تعليمية، أم كنا أولياء أمور، أو طلاباً وطالبات، أو مسؤولين، أو حتى خبراء في مجال التعليم، ونبحث سوية عن إجابة حقيقية لهذه الأسئلة:

- هل المدرسة، بشكلها الحالي، مناسبة لبناء جيل قادر -في القرن الحادي والعشرين- على صناعة النجاح في الحياة، وهل يمكن ذلك أبناءنا وبناتنا من مهارات الحياة، التي تُعدّهم للنجاح في الحياة من: اتصال وتواصل، وحل المشكلات، واتخاذ القرار، والعمل الجماعي، والتفكير المبدع، وإدارة الوقت، أم أن المدرسة على امتداد عمرهم فيها، والذي يتجاوز الإثني عشر عاماً، هي عبارة عن ضياع لوقتهم وطاقاتهم؟

- وهل تراعى المدرسة المعارف الحديثة التي انتشرت في كل مكان، وأصبح لزاماً على أبنائنا تعلّمها؛ مثل البرمجة، والتعلم المهني، وريادة الأعمال، وغيرها الكثير؟ أم أنها متفوقة حول نفسها بمعارفها القديمة، وتمارس التمدّس الإجباري على أبنائنا وبناتنا؟ وبالتالي؛ تخرج رجال ونساء كهف، ما أن يخرجوا من كهف المدرسة القاسي البارد الفارغ، حتى يُصدموا بالتطور الذي ملأ الحياة، وهم عنه في غياهب الجب يقبعون.

- لماذا فقد المعلمون شغفهم، في تطوير ذاتهم وتحديث قدراتهم وبناء مهاراتهم، بما يناسب التطور التقني والمعرفي والمهاري في العالم؟
- هل يُقبل الطالب على التعلّم بمتعة ويرى العودة إلى المدرسة سعادة؟ أم أنها أصبحت تعني لنا ولأبنائنا مصدر إزعاج؟
- لماذا فقد المعلم في العقد الأخير رمزيته ومكانته وقدوته في أعين طلبته؟ لماذا أصبح المنهج الدراسي لا يعني للطلبة شيئاً سوى أنه يثقل كاهلهم ويزيدهم ألماً ووجعاً؟
- ما السبب الذي يجعل الكثير من مواهب أبنائنا وبناتنا تضيع بين جنبات الصفوف وفي أروقة المدارس؟
- لماذا زاد التعليم بالتلقين في المدارس، في عصر توجه فيه العالم إلى استخدام طرق مختلفة في التعلم، تناسب قدرات هذه الأجيال، من تعلم المشاريع وتعزيز النقاش مع الطلبة، والتعلم الجمعي، والتعلم خارج الغرف الصفية، واعتبار الطالب محور العملية التعليمية وغيرها وغيرها الكثير؟
- كيف ينظر أولياء الأمور إلى مدارس أبنائهم؟ هل بعين الرضا؟ أم بعين السخط؟ ولماذا نسمع اعتراضات متكررة من أولياء الأمور عن مدى سوء مدارسنا وضعف مخرجاتها؟

- لماذا تنفق وزارات التربية والتعليم ملايين الدولارات سنوياً على تطوير التعلم والتعليم، والمخرج لا يكاد يرى في عين المجهر؟
- لماذا نعتبر المدارس في الكثير من الأحيان بؤر فساد أخلاقي وضياع سلوكي؟
- لماذا ما زال التكدر في الصفوف وفي المدرسة الواحدة بأعداد كبيرة جداً يفوق الخيال؟ وما أثر ذلك على قدرات المعلم والاستفادة الحقيقية للطالب؟ وما أثر ذلك على اكتساب الطلبة سلوكيات غير مرغوبة وسط هذه الأعداد الغفيرة من الطلبة؟ وكيف سيتم اكتشاف ميول ومواهب وقدرات الأبناء وسط هذا السيل الجارف من الأعداد داخل الفصل الواحد؟
- كيف يتخرج ابني من المدرسة بعد أن يقضي فيها أكثر من اثنتي عشرة سنة وهو محشوّ حشواً قهرياً، من خلال التلقين، دون أن يكتسب مهارة حياتية واحدة؟
- ماذا تفعل المدارس بأبنائنا وبناتنا لإعدادهم للعقد القادم؟ وما خطة وزارات التربية والتعليم للحاق بما فاتها، وتدارك تراجعها على المستوى الإقليمي والعالمي، سواء في الجانب المعرفي أو الأخلاقي؟

- هل تعتبر المدرسة جاذبة أم طاردة لأبنائنا، وحتى للكوادر التي تعمل فيها؟
- هل المناهج في مختلف التخصصات والمواد التعليمية توقد في الطلبة روح الإبداع والاكتشاف، وهل تُفسح أمام عقولهم المجال الواسع الرحب في التفكير، فتطلق العنان لذهنه في التركيب والتحليل والاستنتاج؟
- هل يشعر أبنائنا وبناتنا بالأمان مع معلميهـم؟ ومع زملائهـم، ومع إداراتهـم؟ أم المدرسة تعتبر -لبعضهـم- مصدراً للخوف من التمر والمتمنـرين من الطلبة الآخريـن ومن المعلمين والكوادر المدرسية الأخرى؟
- هل المباني المدرسية آمنة؟ ومجهزة؟ وهل الغرف الصفية كافية؟
- هل يعاني أبنائنا وهم يذهبون إلى مدارسهم؟
- هل تستطيع وزارات التربية والتعليم أن تكتفي ذاتياً من الناحية المالية؟ أم أنها ستبقى عبئاً ثقيلاً على موازنة الدول؟
- هل يشعر الطلبة فيها بالطمأنينة والقدرة على تحقيق الذات؟ هل تنمي فيهم التعاون والحب والألفة وتقبّل الآخرين؟ هل يشعرون بالتواصل الحقيقي الآمن؟

- هل تشعر قمة الهرم في وزارات التربية والتعليم بحقيقة ما يوجد في الميدان؟ أم أنهم منفصلون عنه؟ وهل يملكون المعرفة الحقيقية فيما يخص هذا القطاع؟ أم أنهم جاءونا من قطاعات أخرى؛ وبالتالي لا يملكون مقومات عمليات الإصلاح والتجويد المطلوبة في قطاع يعتبر من أهم قطاعات بناء الأوطان؟

- هل نحن مدركون لمدى الهدر المالي والاجتماعي والنفسي، وهدر الطاقات والإمكانات والمواهب والقدرات التي تتم في كل لحظة في مدراسنا؟

- من قال إن شكل المدرسة الحالي هو كتاب منزل؟ أليست كل الصناعات تتطور وتتقدم، وكل يوم فيها جديد، وخاصة في السنوات الخمس الأخيرة؟ حسناً، ولماذا المدرسة يطبق عليها مقولة: «مكانك سر» بحيث لا تبارح مكانها ولا تتطور، وتدور حول الرحي التقليدية؟

- نعم هناك مجموعة من دول الوطن العربي قد خطت خطوات كبيرة في هذا المجال، لكنني أعتقد بأنه لم يصل للآن لب التغيير المطلوب، فالاهتمام بالمباني وجمال الغرف الصفية ما زال مسيطراً، ودول أخرى، للأسف، لم تخطو خطوة واحدة للأمام،

فبقيت كما هي، ودول أخرى قد تراجعت وكدّست أكوام الغبار على خطط التغيير والتطوير.

- لماذا ما زال أسلوب العنف بأشكاله المختلفة موجوداً داخل مدارسنا؟ لماذا ما زالت نبرة التحدي، خاصة مع اليافعين، تسمع في أروقة المدرسة؟ لماذا لا يعلم المعلم عن علم النفس التربوي وطرق التعلم الحديثة إلا النذر اليسير منها، وإذا علم فإنه لا يطبق منها شيئاً، إلا من رحم ربي؟

لماذا ولماذا ولماذا؟؟ مئات ومئات من الأسئلة التي يتداولها الناس حول جدوى المدارس في الوطن العربي، لكنها ما زالت عالقة دون وجود إجابات، ولعلي في هذا الكتاب -وبعد خبرة أكثر من (٢٧) سنة في مجال التربية والتعليم، مررت فيها بتجارب التدريس والإدارة المدرسية وامتلاك المدارس وإنشائها في عدة دول، وكذلك في مجال إعداد وإدارة العديد من المشاريع الكبرى مع وزارات التربية وبإشراف منظمات دولية في دول الإقليم وبمختلف أنواع المدارس- أن أضع بين أيديكم كأولياء أمور وطلبة وكمسؤولين وخبراء عرب في التربية والتعليم بعض الإجابات التي أعتبرها في غاية الأهمية؛ لتبدأ مسيرة حقيقية في الوطن العربي، تهدف إلى تطوير التعليم وتجويد مخرجاته.



ولا تتحدث أسطر هذا الكتاب عن وصف الداء فقط؛ بل هناك اهتمام بالغ فيه بوصف الدواء والعلاج، من خلال طرح أفكار استراتيجية عملية لحل ما نعاني من مشكلات وتحديات في قطاع التربية والتعليم

ولم أقصد بعنوان هذا الكتاب «عندما تموت المدرسة» بأن المدارس في الوطن العربي لا تؤدي دورها المطلوب منها فحسب -فكانها غير موجودة أصلاً-؛ بل قصدت كذلك أن يكون هناك تغيير كامل وجذري، وبطرق عملية مدروسة وحكيمة وخطط عمل واستراتيجيات توصلنا إلى تغير شكل المدرسة الحالي إلى شكل مختلف يمكننا من أداء الأمانة لأبنائنا وبناتنا ولوطننا العربي في أقرب وقت ممكن، وأن نقدّم لها عمليات الإنعاش المطلوبة حتى ترجع للحياة من جديد.

كما تذكرون وفي العام ٢٠٢١ وبعد أن بدأ وباء كورونا يحطّ رحاله وأوزاره بعيداً عن العالم، كانت وزارات التربية والتعليم في الوطن العربي تفخر بإنجازاتها في مجال التعلم عن بعد، وتتغنى بما قدمته للطلبة من تعليم.

بينما كان لأولياء الأمور وللعديد من خبراء التعليم رأي آخر، ليس فقط في الوطن العربي؛ بل حول آليات واستراتيجيات التعلم عن بعد في كل دول العالم. المهم أنني قمت بنشر مقطع فيديو عبر وسائل التواصل الاجتماعي بعنوان: «فشل تجربة التعلم عن بعد في الوطن العربي» وخلال الساعات التي تلت نشر الفيديو، اتصل بي مجموعة من الأصدقاء وخبراء ومسؤولين في مجال التربية والتعليم من العديد من الدول العربية يعبرون -تقريباً- عن رأي واحد هو: «لم تنشر مثل هذه الفيديوهات»؟ ألم تقدم الوزارات كل ما تستطيع من إمكانيات لتفادي مشاكل التعلم في زمن كورونا؟ الوقت ليس مناسباً لذلك، خاصة أن الفيديو الذي قمت بنشره قد شاهده آلاف الناس خلال دقائق، وهذا قد يسبب إزعاجاً ليس وقته الآن، فنحن نحاول أن نتدارك آثار كورونا السيئة على التربية والتعليم، نحن نحتاج دعمكم، ولسنا بحاجة لجلد الذات».

وجلهم كانوا يتهون مكالمتهم العتابية بعبارات متشابهة؛ كانت

بمثابة الفتيل الذي أشعل في ذهني فكرة أن أبدأ بكتابة هذا الكتاب؛ فكانت فكرتهم تتمحور حول «بدلاً من أن تنتقد؛ قم وتحدث بآليات وأدوات ممكنة لتطوير التعليم، لا تضع العصا في العجلة».

الحقيقة الأولى: كان كلامهم صحيحاً وخاطئاً في نفس الوقت، فوزارات التربية والتعليم في الوطن العربي -مشكورة- ومن خلال كوادرها قد سخرت جميع إمكانياتها من أجل سد فجوة التعليم بعد أن أغلقت المدارس أبوابها، وهجر المعلمون صفوفهم، وترك الطلبة مقاعدهم وساحاتهم وملاعبهم، ونحن جميعاً نقدر لها ذلك، لكنها للأسف لم تكن كافية، فكنت أشعر أحياناً كثيرة بأن البوصلة تائهة، وأنه عمل غير منظم، وأقرب إلى الدعاية وآليات التسويق منه إلى الحقائق في الميدان، فالمنصات غير جاهزة، ولم يتم تطويرها بالشكل الكافي خلال تلك الفترة وبعدها، والمعلمون غير مهيين، مع أنه كان يمكن تهيئتهم خلال وقت قصير، والمشكلة الكبرى أننا؛ لم نتطور بعد انتهاء هذا الوباء البشع، وعدنا بخفي حنين إلى سيرتنا الأولى، ولم ندرك العديد من الوزارات في الوطن العربي حقيقة التبدل والتغير والتطور الذي لحق بعالم المدارس في العالم، ولم تنطق ببنت شفة في تجويد التعلم.

ناهيكم عن جاهزية أولياء الأمور على الإحلال محل المعلم

في التدريس أو في حقيقة الأمر: التلقين، أو على استخدام التقنيات الحديثة، ومتابعة الأبناء، وخاصة في المرحلة التأسيسية، وعن وعن وعن.

ثم لا ننسى البنية التحتية التقنية في دولنا العربية لنجاح تجربة التعلم عن بعد، ومدى ضعف جهوزيتها في تصديقنا للدعاية الإعلامية التي هتفت بها أبواق وزارات التربية والتعليم في الوطن العربي، والتي وصل بها الأمر إلى «أن دول العالم تعلمت من تجارب بعض الدول العربية».

والحقيقة الثانية: أن الانتقاد لا يُؤتي أكله؛ بل لا بد من وضع حلول عملية واقعية قابلة للتطبيق عبر خطة استراتيجية، بحيث نصل كخبراء في التربية والتعليم في الوطن العربي إلى المدرسة التي نريد عالمياً.

فبدأت منذ ذاك الحين أخط أسطر هذا الكتاب الذي أهدف من خلاله إلى أن نُخلّص الوطن العربي من وضع تعليمي مرير؛ والمتمثل بالأثر القاتل لموت المدرسة على الأبناء وطاقاتهم وعلى الأوطان بحرمانها من تلك الطاقات، وأن ننهض بتلك المؤسسة التربوية التي لا يختلف اثنان على أهميتها سواء في إيجاد التوازن في البناء الرباعي عند الطلبة من بناء عقلي، وانفعالي، واجتماعي، وبناء جسدي،

وتعمل على إيجاد التوازن المطلوب في منظومة العلاقات لديهم من: علاقة بالذات، وبالخالق، وبالأخرين، وبالأشياء، وأن تمتن فيهم سداسية المهارات الحياتية الأساسية من: اتصال وتواصل، وحل المشكلات، واتخاذ القرار، وإدارة الوقت، والعمل الجماعي، والتفكير المبدع، لنوجد بالتالي نواة صحية للتربية والتعلم، تقوم على تمكين المعلمين والكوادر المدرسية من تطبيق أفضل الطرق والرسائل التعليمية، كي نسير بأبنائنا وبناتنا وبالوطن إلى الموضع الذي نستحقه، وذلك من خلال توصيف الواقع المرير، ومن ثم الحديث عن حلول استراتيجية فاعلة وعملية حقيقة واقعية ممكنة التطبيق.

فعملية التعلم لها آثار خطيرة وكبيرة في آن واحد، لأنها ذات أبعاد اجتماعية واقتصادية ونفسية وثقافية وبقائية...، بالإضافة إلى كونها عملية مستمرة؛ ليس لها ارتباط بزمان أو مكان أو جيل معين، وعملية تطوير الواقع التعليمي لا تقتصر على فئة دون فئة، بل هي متلازمة يشترك فيها المخطط والخبير والمعلم والإدارة والطالب والبيت والمجتمع بأفراده كافة.

وحاولت في هذا الكتاب أن أذكركم؛ بأننا لسنا بحاجة إلى أساليب وبرامج تعليمية قهرية تنتج أفراداً يمتلكون كمّاً هائلاً من

المعلومات، لكنهم لا يملكون القدرة على التفكير فيها. ويفترض أن يكون التعليم خبرة حرة يعبر فيها الفرد عن نفسه، ويستخرج قدراته الإبداعية، ويطلق العنان لمواهبه إلى أقصى الحدود بصورة حرة، بعيداً عن القوالب النمطية وأشكال التحكم والسيطرة والضوابط والقيود على التفكير، مع أهمية عدم إغفال التوجيه الإيجابي والنصح الذكي في توجيههم، بما لا يخالف موروثاتنا القيمية السليمة ومبادئنا الصحيحة.

من ناحية أخرى نجد أن الطالب قد يكتسب -إن فقدت المراقبة- عادات وسلوكيات سيئة من مجتمع الرفقاء في المدرسة، لكن أسوأ ما قد يكتسبه الطالب في المدرسة الخضوع لأفكار وآراء وأهواء المعلمين الجبرية؛ فيقتل هذا النموذج من المعلمين في طلابه كل استعداداتهم الفكرية من خلال تفرده بالرأي، وتحديثه باسم الحقيقة المطلقة، ورفضه للحوار والجدل من قبل الطلبة، ليخرج للمجتمع مجموعة من الطلبة المستعدين للفكر المنحرف بكافة أشكاله، مجموعة من الأبناء والبنات الذين يفتقدون للانتماء، ويفتقدون حتى لحب التعلم والتعليم، لأنهم طوال الاثنتي عشرة سنة قد تألموا ولم يتأملوا، حُفظوا ولم يفهموا، غالبهم الشعور بالخوف أكثر من شعورهم بالأمان، يعتبرون المدرسة مكاناً طارداً وليس جاذباً.

ويجب ألا ننسى أن عملية التغيير والتطور في المجتمعات حتمية، وهي تحدث -في الآونة الأخيرة- بصورة سريعة، وبالتالي؛ فإن عملية فهم هذا التغيير والإعداد له يتطلب خططاً تربوية جديدة ومرنة ومواكبة لروح العصر ومتجاوزة للخطط والأساليب التقليدية.

لذلك علينا أن نستبدل الواقع في المؤسسة التعليمية من الملل إلى المتعة، ومن التلقين إلى الحوار والتفكير، ومن القهر الفكري إلى الحرية المنضبطة بالمصلحة واحترام الآخرين، ومن التقليد والتكرار إلى الابتكار والتجديد، ومن وحدانية المنهج إلى تعدد المناهج، ومن الخوف للأمان، ومن التقييم الأوحـد إلى التقييم المتكامل المتعدد، ومن التركيز على أن الطالب المميز هو الذي يحصل على أعلى العلامات، إلى أن كل طالب موهوب ومميز، ومن التعليم بالأساليب التقليدية، إلى التعلم بالطرق الحديثة التي تناسب تطور هذا الجيل، ومن الاهتمام بإنهاء صفحات الكتاب، إلى التركيز على أهم ما في المنهاج من مدى وتتابع، علينا تغيير وجهة نظرنا عن المدرسة؛ من أنها مكان للمعرفة، إلى كونها مكاناً لتنمية ثلاثية الحاجات النمائية، ورباعية العلاقات، وسداسية مهارات الحياة، فنكون بهذا؛ قد هدمنا بمعول المدرسة الحديثة تلك المدرسة الخبرة التي تتراجع بالعملية التعليمية بدلاً من أن تتقدم بها.